اختيار العنوان

موضوع البحث وكيفية اختياره وعلاقته بمشكلة البحث

يمثل اختيار موضوع البحث الخطوة الأولى في بناء البحث العلمي، إذ تبدأ معظم الدراسات بفكرة أو ملاحظة أو تساؤل يثير اهتمام الباحث ويدفعه إلى البحث والتقصي. غير أن امتلاك فكرة عامة لا يعني بالضرورة امتلاك موضوع بحث صالح للدراسة؛ لأن البحث العلمي يحتاج إلى موضوع محدد يمكن دراسته وفق منهج واضح، وفي حدود زمنية ومكانية وعلمية مناسبة.

ويُعدّ حسن اختيار موضوع البحث من العوامل التي تؤثر بصورة مباشرة في نجاح الدراسة؛ لأن الموضوع الواسع أو الغامض قد يؤدي إلى تشتت الباحث، في حين أن الموضوع المحدد يساعده على ضبط مادته العلمية، وتحديد أهدافه، واختيار منهجه، والوصول إلى نتائج أكثر دقة.

ولا ينفصل موضوع البحث عن مشكلة البحث، بل إن العلاقة بينهما علاقة وثيقة؛ فموضوع البحث يمثل المجال العام الذي يتحرك فيه الباحث، أما مشكلة البحث فتمثل القضية أو السؤال المحدد الذي يسعى الباحث إلى دراسته والإجابة عنه. ومن هنا فإن الانتقال من الموضوع العام إلى المشكلة المحددة يمثل مرحلة أساسية في بناء البحث العلمي.

أولًا: مفهوم موضوع البحث

يقصد بموضوع البحث المجال أو القضية التي يختار الباحث دراستها، والتي تتحدد من خلالها طبيعة المادة العلمية التي سيجمعها ويحللها.

وقد يكون موضوع البحث متعلقًا بظاهرة لغوية، أو قضية أدبية، أو شخصية علمية، أو كتاب، أو اتجاه فكري، أو ظاهرة اجتماعية، أو غير ذلك من المجالات التي يمكن إخضاعها للدراسة العلمية.

غير أن الموضوع في صورته الأولى غالبًا ما يكون عامًا، ولذلك يحتاج الباحث إلى تضييقه وتحديد حدوده. فقولنا مثلًا: «الشعر العربي المعاصر» يمثل موضوعًا عامًا، ولا يصلح بهذه الصورة عنوانًا لدراسة محددة؛ لأن الشعر العربي المعاصر واسع جدًا من حيث الشعراء والبلدان والفترات الزمنية والموضوعات.

ويمكن تضييق هذا الموضوع ليصبح مثلًا: «صورة المدينة في الشعر العراقي المعاصر»، ثم يمكن تضييقه أكثر بدراسة شاعر أو مجموعة شعرية معينة. وكلما كان الموضوع أكثر تحديدًا، أصبح الباحث أكثر قدرة على الإحاطة به وتحليله بصورة دقيقة.

ثانيًا: مصادر اختيار موضوع البحث

لا يأتي موضوع البحث من مصدر واحد، وإنما يمكن أن تتشكل فكرته من مصادر وتجارب متعددة. ومن أهم مصادر اختيار الموضوع:

١. القراءة والاطلاع

تُعد القراءة الواسعة من أهم الوسائل التي تساعد الباحث على اكتشاف موضوعات جديدة؛ فالباحث أثناء قراءته للكتب والدراسات والنصوص قد يلاحظ قضية لم تحظَ بالدراسة الكافية، أو يكتشف اختلافًا بين الباحثين، أو يجد جانبًا يحتاج إلى مزيد من البحث.

٢. الدراسات السابقة

تمثل الدراسات السابقة مصدرًا مهمًا لاختيار موضوع البحث؛ لأنها تكشف للباحث ما أُنجز في المجال الذي يريد دراسته، وما الجوانب التي لا تزال بحاجة إلى دراسة.

فقد يقرأ الباحث دراسة سابقة فيجد أن صاحبها أشار إلى قضية تحتاج إلى بحث مستقل، أو يكتشف أن النتائج التي توصلت إليها الدراسات السابقة متباينة، فيتخذ من هذا الاختلاف منطلقًا لدراسته.

٣. الملاحظة

قد تبدأ فكرة البحث من ملاحظة بسيطة يكتشفها الباحث أثناء قراءته أو تدريسه أو عمله العلمي. وإذا استطاع الباحث تحويل هذه الملاحظة إلى سؤال قابل للدراسة، فإنها قد تصبح أساسًا لموضوع بحث علمي.

٤. التخصص العلمي

يساعد تخصص الباحث على اختيار موضوعات أكثر ارتباطًا بخبرته ومعرفته. فالباحث في اللغة العربية، مثلًا، يمكن أن يستفيد من معرفته بالنحو أو الصرف أو البلاغة أو الأدب في اختيار موضوعات تقع ضمن مجاله العلمي.

٥. المشكلات العلمية

قد يكون وجود قضية لم تجد تفسيرًا كافيًا سببًا مباشرًا لاختيار موضوع البحث. وهنا يبدأ الباحث من المشكلة، ثم يحدد الموضوع الذي يمكن من خلاله دراسة هذه المشكلة.

ثالثًا: معايير اختيار موضوع البحث

لا ينبغي اختيار الموضوع لمجرد أن الباحث يميل إليه أو يراه جذابًا، بل لا بد من مراعاة مجموعة من المعايير العلمية، ومن أهمها:

١. أهمية الموضوع

ينبغي أن تكون للموضوع قيمة علمية أو معرفية، وأن يسهم البحث فيه في توضيح قضية أو إضافة معرفة جديدة أو إعادة قراءة موضوع من زاوية مختلفة.

٢. قابلية الموضوع للدراسة

قد يكون الموضوع مهمًا، لكنه غير قابل للدراسة بسبب صعوبة الحصول على مصادره أو اتساع مجاله أو عدم توفر مادته العلمية. لذلك ينبغي للباحث أن يتأكد من إمكانية إنجاز البحث قبل اعتماده.

٣. وضوح الموضوع

كلما كان الموضوع واضحًا ومحددًا، استطاع الباحث أن يضع خطة أكثر دقة. أما الموضوع الغامض فقد يؤدي إلى اضطراب في أهداف البحث ومناهجه.

٤. ملاءمة الموضوع لقدرات الباحث

من الأفضل أن يختار الباحث موضوعًا يمتلك معرفة أولية به، أو يستطيع الوصول إلى مصادره وفهم مادته العلمية، لأن ذلك يساعده على إنجاز البحث بصورة أفضل.

٥. الجدة والإضافة

لا تعني الجدة أن يكون الموضوع جديدًا بصورة مطلقة، وإنما يمكن أن تتحقق من خلال معالجة الموضوع من زاوية جديدة، أو تطبيق منهج مختلف، أو دراسة مادة لم تُدرس سابقًا، أو إعادة النظر في نتائج سابقة.

٦. إمكانية تحديد حدود البحث

الموضوع الجيد هو الذي يستطيع الباحث تحديد حدوده، سواء أكانت زمنية أم مكانية أم موضوعية، بما يتناسب مع حجم البحث والوقت المتاح لإنجازه.

رابعًا: من الموضوع العام إلى الموضوع المحدد

من أهم مهارات الباحث أن يعرف كيف ينتقل من المجال العام إلى موضوع محدد. فالبحث العلمي لا يبدأ عادة بعنوان نهائي منذ اللحظة الأولى، وإنما يمر العنوان بعدة مراحل من التضييق والتحديد.

فإذا أراد الباحث دراسة الأدب العربي، فإن هذا المجال واسع جدًا. ويمكن أن يضيق إلى الشعر العربي الحديث، ثم إلى الشعر العراقي الحديث، ثم إلى الصورة الشعرية في الشعر العراقي الحديث، ثم إلى دراسة الصورة الشعرية عند شاعر محدد أو في ديوان محدد.

وهذا التدرج يوضح أن اختيار الموضوع عملية تحتاج إلى تفكير ومراجعة، وليست قرارًا سريعًا.

ومن المفيد أن يسأل الباحث نفسه عند تحديد الموضوع:

- ما المجال الذي أريد دراسته؟
- ما الظاهرة التي أريد التركيز عليها؟
- ما المادة التي سأطبق عليها الدراسة؟
- ما الحدود التي أستطيع الالتزام بها؟
- ما الذي يمكن أن يضيفه بحثي؟

إن الإجابة عن هذه الأسئلة تساعد الباحث على الوصول إلى موضوع أكثر دقة وقابلية للبحث.

خامسًا: مفهوم مشكلة البحث

إذا كان موضوع البحث يمثل المجال العام للدراسة، فإن مشكلة البحث تمثل القضية المحددة التي يسعى الباحث إلى فهمها أو تفسيرها أو الإجابة عنها.

ومشكلة البحث ليست بالضرورة مشكلة بمعنى وجود خطأ أو أمر سلبي، وإنما قد تكون سؤالًا علميًا أو ظاهرة تحتاج إلى تفسير، أو اختلافًا في الآراء، أو جانبًا لم يحظَ بالدراسة الكافية.

فمثلًا، يمكن أن يكون موضوع البحث:

«الصورة الشعرية في شعر شاعر معين»

لكن هذا الموضوع لا يمثل مشكلة بحثية بحد ذاته. ويمكن أن تتحول الدراسة إلى مشكلة عندما يسأل الباحث:

كيف تشكلت الصورة الشعرية عند هذا الشاعر؟ وما أبرز أنماطها؟ وما الوظائف التي تؤديها في بناء النص؟

هنا أصبح لدينا سؤال أو قضية يمكن أن ينطلق منها البحث.

سادسًا: العلاقة بين موضوع البحث ومشكلة البحث

تقوم العلاقة بين موضوع البحث ومشكلته على الانتقال من العام إلى الخاص.

فالموضوع يحدد المجال الذي يعمل فيه الباحث، أما المشكلة فتحدد القضية التي يريد الوصول إلى إجابة عنها داخل هذا المجال.

ويمكن توضيح العلاقة من خلال المثال الآتي:

الموضوع العام:

النثر العربي الحديث.

الموضوع المحدد:

الحوار في الرواية العراقية الحديثة.

مشكلة البحث:

كيف يوظف الروائي العراقي الحوار في بناء الشخصيات وتطوير الأحداث والكشف عن المواقف الفكرية؟

يتضح هنا أن الموضوع يحدد مجال الدراسة، بينما تحدد المشكلة ما الذي يريد الباحث معرفته داخل هذا المجال.

ومن ثم لا يمكن أن تكون هناك مشكلة بحث واضحة إذا لم يكن الموضوع محددًا، كما أن اختيار الموضوع وحده لا يكفي لبناء بحث علمي ما لم يتحول إلى مشكلة أو مجموعة من الأسئلة التي تحتاج إلى دراسة.

سابعًا: كيفية صياغة مشكلة البحث

تحتاج مشكلة البحث إلى صياغة دقيقة وواضحة، بحيث يستطيع القارئ أن يعرف منها القضية التي يسعى البحث إلى معالجتها.

ويمكن صياغة المشكلة في صورة سؤال، مثل:

ما طبيعة حضور المكان في الرواية العراقية المعاصرة؟

أو:

كيف أسهم التكرار في بناء الدلالة في شعر الشاعر...؟

كما يمكن صياغتها في صورة فقرة توضح الظاهرة وتبين الجانب الذي يحتاج إلى دراسة.

وينبغي عند صياغة المشكلة الابتعاد عن الأسئلة العامة جدًا؛ لأن السؤال الواسع يؤدي غالبًا إلى بحث واسع وغير محدد.

ثامنًا: العلاقة بين مشكلة البحث وأهدافه

ترتبط مشكلة البحث ارتباطًا مباشرًا بأهداف الدراسة؛ فالأهداف ينبغي أن تكون محاولة للإجابة عن المشكلة أو تفصيلًا للجوانب التي تتضمنها.

فإذا كانت المشكلة تتعلق بكيفية توظيف الحوار في الرواية، فإن من أهداف البحث أن يدرس أشكال الحوار، ووظائفه، وعلاقته بالشخصيات والأحداث.

وهذا الترابط بين المشكلة والأهداف والمنهج والنتائج يمثل أحد أهم عناصر بناء البحث المتماسك.

فلا ينبغي أن تكون المشكلة في اتجاه، والأهداف في اتجاه آخر، والمنهج في اتجاه ثالث؛ لأن البحث العلمي يقوم على وحدة أجزائه وترابطها.

تاسعًا: أخطاء شائعة في اختيار موضوع البحث

يقع بعض الباحثين، ولا سيما المبتدئين، في مجموعة من الأخطاء عند اختيار موضوعاتهم، ومن أبرزها:

١. اختيار موضوع واسع جدًا:

مما يجعل من الصعب الإحاطة بجميع جوانبه.

٢. اختيار موضوع لا تتوفر له مصادر كافية:

وقد يؤدي ذلك إلى توقف البحث أو ضعفه.

٣. اختيار موضوع مكرر دون إضافة واضحة:

فالتكرار ليس مشكلة إذا كانت هناك زاوية جديدة، أما إعادة ما قيل بالطريقة نفسها فلا تحقق إضافة علمية.

٤. الخلط بين الموضوع والمشكلة:

فقد يعتقد الباحث أن عنوان البحث نفسه يمثل مشكلة البحث، بينما الموضوع أوسع من المشكلة.

٥. اختيار الموضوع بناءً على الرغبة فقط:

فاهتمام الباحث بالموضوع مهم، لكنه لا يكفي من دون التأكد من قيمته وإمكان دراسته.

٦. عدم تحديد حدود البحث:

فالحدود تساعد الباحث على السيطرة على مادته وعدم التوسع غير الضروري.

عاشرًا: الموضوع الجيد بداية لبحث ناجح

يمكن القول إن جودة البحث تبدأ إلى حد كبير من جودة اختيار موضوعه؛ لأن الموضوع المحدد يساعد الباحث على بناء مشكلة واضحة، والمشكلة الواضحة تساعده على صياغة أهداف دقيقة، ومن ثم اختيار المنهج المناسب وجمع المادة العلمية الملائمة.

ولهذا فإن الباحث قبل أن يبدأ بكتابة بحثه ينبغي ألا يتعجل في تثبيت الموضوع، بل عليه أن يقرأ حوله، ويتعرف إلى الدراسات السابقة، ويفحص المصادر المتاحة، ثم يختبر مدى قابليته للدراسة.

وقد يحتاج الباحث إلى تعديل عنوانه أكثر من مرة قبل الوصول إلى الصيغة النهائية، وهذا أمر طبيعي في البحث العلمي؛ لأن وضوح الموضوع غالبًا ما يتطور مع القراءة والاطلاع.

يتضح مما تقدم أن اختيار موضوع البحث ليس خطوة شكلية تسبق البحث، وإنما هو مرحلة أساسية تؤثر في جميع مراحله اللاحقة. فالموضوع يمثل المجال الذي يتحرك فيه الباحث، وكلما كان واضحًا ومحددًا وقابلًا للدراسة، كان من السهل بناء بحث منظم ومتماسك.

كما أن موضوع البحث يرتبط ارتباطًا وثيقًا بمشكلة البحث؛ فالموضوع يجيب عن سؤال «في ماذا أبحث؟»، بينما تجيب المشكلة عن سؤال «ماذا أريد أن أعرف أو أفسر أو أناقش داخل هذا الموضوع؟».

ومن هنا فإن الباحث الناجح هو الذي يستطيع أن ينتقل بصورة تدريجية من الفكرة العامة إلى الموضوع المحدد، ومن الموضوع إلى المشكلة، ومن المشكلة إلى الأسئلة والأهداف، ثم إلى المنهج والتحليل والنتائج.

وبذلك لا يكون اختيار موضوع البحث قرارًا عشوائيًا، وإنما عملية علمية تقوم على القراءة والملاحظة والموازنة، وتنتهي باختيار موضوع يمتلك قيمة علمية، ومشكلة واضحة، ومادة قابلة للدراسة، وإمكانية حقيقية لإضافة شيء إلى المعرفة.